جناح متمرد

بثينة خليفة قاسم

كاتبة من البحرين

التنوير بين الأصالة والحداثة.. المعنى والدلالة

ما نصبو إليه كشعوب تتطلع لمزيد من الحداثة هو أن تعتمد رسالتنا التنويرية على ربط المنهج العقلي بالمعايير القيمية وبإنسانية الإنسان على اعتبارها القيمة العليا وليس قيم السوق، وهذا ما يمجد مشروعنا التنويري

■ في معرض قراءاتي المستمرة في بيان النهضة والمشروع التنويري المعاصر، استوقفتني عدة محاور وركائز يبدو من الأهمية بمكان عدم التغافل عنها أو المرور عليها مرور الأكرمين، دونما سبر أغوارها والتعرف على مسبباتها وطرق معالجتها، كتلك المتعلقة بمناهضة الوحدة الوطنية وكيفية احترام الاختلاف العربي من أجل التكامل والوحدة العربية، إضافة إلى سعي القوى الغربية إلى تقزيم التصنيع والفكر العربي ومحو الثقافة - الهوية - العربية، والعولمة البديلة.

ولنأخذ الفكر العربي أو العقلية العربية وما يحيط بها من ظروف ومستجدات كأحد عوائق وإشكاليات المثقف العربي في الإسهام بنتاجه الفكري والعقلي للارتقاء بالأمة العربية جمعاء .. ولابد هنا من الإشارة إلى أن النهج الفكري العربي ينطلق من القيم الكبرى التي حملتها الثقافة العربية، كما وينطلق أيضاً من منطق العصر وحاجاته ومفاهيمه، ولم تستطع أمة عبر التاريخ أن تبني حضارتها ومجدها بمعزل عن التعامل مع محيطها والعالم من حولها، فالتعامل وحوار الحضارات أحد مقومات النهوض بالمشروع التنويري العربي، وبعيداً عن الشعارات - الطوباوية - الجريحة، فقد ساهمت الحضارة العربية في إمداد وإغناء الحضارات والثقافات الأخرى بمزيد من الإشعاع والتطور، ساعدتها في ذلك جملة من الظروف المتاحة من حرية واسعة في التعبير وعدم إذلال وانبطاح العقلية آنذاك بالخوف تارة واللجم تارة أخرى !

ولكن، كيف نستطيع أن نعيد سابق عهدنا، وهل ثمة وسيلة لذلك ؟

لعلي لا أبالغ بالقول، إنه من الخطأ الاستسلام للكسل الذهني العام باستيراد تجارب الشعوب الأخرى بعواهنها، فلا بأس باستلهامها والأخذ بمقومات نجاحها ونفوذها، أما الذوبان الكلي بحجة التقدم والحرية، فذاك تقليد فيه من السلبيات والنتائج الوخيمة الشيء الكثير، فلا خير في حرية أو تحرر لا يتفق وقماشتنا الفكرية والروحية!

وعليه يجب أن يكون تطلعنا للحداثة الفكرية التنويرية مقروناً بربطها بالأصالة، متمثلة بالقيم والمعايير الأخلاقية، وهذا ما تناسته الحضارة الغربية .. فما الذي قدمه لنا النظام العالمي المتفرد (أمريكا) حضارياً للعالم ؟ إذا ما أدركنا أن أمريكا تنفق 25 - 30% من ميزانيتها على إيواء الأطفال غير معلومي الهوية، وأنها تنفق على شراء المخدرات ما يقارب الـ 100 مليون دولار سنوياً، أي ما يفوق إنفاقها على شراء النفط!

وهي تفتقر إلى تكريس الناحية الأخلاقية في مناهجها التعليمية، يقول (فارس غلوب) : (أمريكا بطل ملاكمة، مصاب بالأيدز).

جميل أننا ندرك مواطن الضعف والوهن في مراكز القوى في العالم - أمريكا نموذجاً- وأننا بإدراكنا تلك المواطن ومسبباتها نستطيع تجاوزها في مشروعنا التنويري المعاصر، لاسيما وأن العقلية العربية لازالت محتفظة بكثير من مقومات بقائها متماسكة، غير مفككة اجتماعياً وأسرياً..

يقول الملك الحسين : (ليكن لنا نحن العرب نظامنا الجديد)، وهو بلاشك لا يرمي إلى حصر ذلك النظام الجديد في بوتقة دون سواها، فالنظام بمعناه الدقيق مجموعة عناصر متكاملة ومرتبطة في سلسلة متناسقة، وإن تباينت أوجهها ومضامينها النوعية، إلا أنها تشترك في إطارها العام الذي يصب في ذات المجرى .

ولا يمكننا فصل السياسة عن الدين عن الاقتصاد عن الفكر، كما أنه من العبث الحديث عن تحديث المجتمعات العربية بكافة مؤسساتها عبر استخدام آخر منتجات العلم في الوقت الذي يبقى فيه العقل العربي حبيس أدراج الماضي بسلاسله العتيقة، فالتحديث لا يتمثل في نقل استخدام العلم فحسب، وإنما تنمية القدرة على الإسهام في تطوير العلم ومنتجاته من خلال ذهنية عربية واعية لخطورة الجمود والتطور البطيء.

لعملية استرجاع سابق عهدنا كفكر نير، علينا أن نعيد النظر في عوامل أو مؤثرات ساهمت في شلل حركة المثقف العربي وقدرته على التنفس إن جاز لي التعبير !

يعلمنا المفكر والناقد العربي (محمود أمين العالم)، أن أي نظام سياسي لا يحكم ولا يهيمن بقوة القمع الإداري والعسكري فحسب، وإنما يحكم ويهيمن بالأيديولوجيا أي بالسيطرة على منابع الفكر والثقافة، ولهذا فإن لكل سلطة سائدة حاكمة، ثقافتها وأفكارها التي تسعى إلى تسييدها من خلال وسائل الإعلام والتعليم والثقافة.

وعليه ندرك كمهتمين ومتابعين لشأن الثقافة العربية اليوم، أن أس أو جوهر أزمة العقلية العربية يكمن في منظومتها السياسية كمنظومة متخلفة وغير مؤهلة، بل غير راغبة في حل المشكلات الأساسية التي تتمثل في التبعية أو التمزق القومي.

فالمنطق يقول إننا كعقلية قادرون على المنافسة والاستنتاج والتحليلات، أي أن العقل العربي ليس متخلفاً في أصله، بيد أن الظروف المحيطة من خوف أو خسارة لمصدر رزق (عدم التحرر المادي)، يحول دون تحقيق أحلامنا ومشروعاتنا الفكرية، إضافة إلى عدم التشجيع الحكومي وحصر آمالنا وتطلعاتنا حول دائرة (الخبز)، عوضاً عن وجود قوى معادية للقمم الفكرية - النيرة - والتي تعمد بدورها إلى بسط وفرض هيمنتها بأساليب قد تكون غير مباشرة، درءاً لمزيد من المطالبة بتفعيل دور المؤسسات والقانون، أو المطالبة بأبسط الحقوق التي تكفل للمرء حياة كريمة.

وعن أهم عناصر التنوير باعتباره مشروعاً نهضوياً، يشير (العالم) لأهمية الدفاع عن العقل والعقلانية وعن الحرية، حرية الناس في أن يفكروا ويختلفوا فيما بينهم في حدود تحافظ على نسيج اللحمة الوطنية، ويعد (الكتاب) أحد أنجح وسائل النهوض بالعقلية العربية، شريطة أن نجيد اختيار ما نقرأ وبالأخص في التاريخ معللاً بالقول: (إن قراءة الواقع معزولة عن معرفة كتب التاريخ هي قراءة فارغة من الدلالة الحية، تفقد البصر والبصيرة، كما أن قراءة الواقع والتسلح بخبراته ومنجزاته ومستجداته الاجتماعية والمعرفية والإبداعية، قراءة تسجيلية جامدة تفتقر للرؤية التاريخية)، ولعل من أسباب عزوف البعض عن القراءة هي حالات الفقر الشديدة التي تحول وإعطاء المرء لنفسه فسحة من التأمل والتفكر لغد مشرق !

إن الربط بين الحداثة والأصالة في مشروعنا التنويري معناه تفعيل البحث في كنوز الثقافة العربية في مختلف مراحل تطورها، وانطلاقاً من مضامين هذا الكنز الكبير يمكن التفاعل مع ما تقدمه الحضارة المعاصرة وانتقاء ما هو إنساني في تطور العلوم .. فما نصبو إليه كشعوب تتطلع لمزيد من الحداثة هو أن تعتمد رسالتنا التنويرية على ربط المنهج العقلي بالمعايير القيمية وبإنسانية الإنسان على اعتبارها القيمة العليا وليس قيم السوق، وهذا ما يمجد مشروعنا التنويري المعاصر ■

B7747@HOTMAIL.COM